حاجتنا إلى معهد أثنولوجى

بجامعة فؤاد الأول

للأستاذ محمد جلال عبد الحميد

نعرض فى هذه الكلمة الموجزة لضرورة العمل على إنشاء معهد ومتحف بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول يكون الغرض منهما دراسة الإنسان وجميع عناصر نشاطه المادى والروحى فى المجتمعات البشرية المحدودة المدنية[1] . وفى هذا المعهد يعنى بوجه خاص بدراسة سكان حوض النيل وأثر البيئة الجغرافية فى حياتهم

وسنتكلم أولاً عن المقدمات والأسباب التى نشأت عنها فكرة وجود معهد الأثنولوجية وملحقاته ، ثم ننتقل بعد ذلك للحديث عن الطرق والوسائل والخطوات التى يمكن اتباعها للوصول إلى تحقيق فكرة وجود هذا المعهد ، مراعين فى ذلك الحالات المادية والمستوى العلمى بمصر فى الوقت الحاضر . وفى النهاية نعرض لبرنامج الدراسة فيه وجمع الأشياء وترتيبها بالمتحف

* * *

كيف برأت البحوث الاثنولوجية بمصر

(١) المؤسسات العلمية بمصر

إذا استثنينا بحوث « جيرارد » Girard أحد أعضاء الحملة الفرنسية ووصفه الشامل لبعض نواحى الحياة المصرية ، وألقينا نظرة عامة على تاريخ المؤسسات العلمية بمصر ، ثم تصفحنا بحوثها الاثنوجرافية وقسنا مجهوداتها لنلمس ما قدمته من فوائد لعلم الاجتماع بوجه عام ، ولإثنوجرافية حوض النيل بوجه خاص، وجدنا أن الجمعية الجغرافية الملكية[1] هى أسبق تلك المؤسسات إلى تحديد غايتها من حيث العمل على دراسة البيئة الجغرافية والاجتماعية بحوض النيل ، إذ نقرأ فى منهجها الموضوع عام ١٩١٨ : أن « الجمعية ترغب بوجه خاص فى توسيع وتهذيب البحوث الاثنولوجية » :

(La Societé désire étendre le champ de ses études et développer plus particulièrement les études éthnologiques(2))

وجاء فى موضع آخر من هذا المنهج أن « البيئة الجغرافية لا تدرس إلا فى الحالات التى تتأثر بها طرق حياة الإنسان » :

(Nous n'étudierons le Milieu que dans la mesure où il conditionne les modes de L'existence de l'homme(3))

ولتحقيق تلك الغاية اتبعت الجمعية الجغرافية عدة طرق، منها القيام بعمل بحوث علمية على البيئات الجغرافية بحوض النيل والأمم والقبائل المنتشرة فوقه لتحديد مميزات تلك البيئات ومعرفة اختلاف تلك القبائل والأمم من حيث الجنس والعادات والتقاليد ونوع نشاطها المادى ، وأن تتعهد الجمعية بنشر تلك البحوث وإلقاء المحاضرات التى تعالجها . يضاف إلى هذا أنها أنشأت متحفاً بدارها يضم كثيراً من أنواع الحرف والصناعات التى يمكن اعتبارها إلى حد ما من مميزات البيئة المصرية ممثلة فى مدينة

---

(١) استعمل علماء الاجتماع والأنثولوجيا اصطلاحات مثل :
« Societés Primitives », « societés non-civilisées », « Societés Sauvages », « Societés Archaïques », etc...

وهذه تعبيرات مختلفة تدل على الأمم والقبائل الزنجية وغيرها من سكان أفريقيا وآسيا وأمريكا واستراليا التى ما زالت تتبع فى تفكيرها وحياتها نظاماً بسيطاً خلواً من التعقيد والتنوع الذين تمتاز بهما حياة الأمم الراقية ؛ ولكنا نفضل هنا استعمال عبارة « الأمم ذات المدنيات المحدودة » عن غيرها من العبارات السابقة ؛ وذلك لأنه لا توجد الآن أية أمة أو جماعة بشرية مهما تضاءل حجمها أو اختلفت بيئتها الجغرافية بدون مدنية ، وهذه المدنية هى بدورها خليط من مدنيات متعددة ولها تاريخ وأوضاع معينة

(١) أنشئت هذه الجمعية فى عهد الخديو اسماعيل باشا بمرسوم تاريخه ١٩ مايو سنة ١٨٧٦ أنظر « الجمعية الجغرافية الملكية » دليل الزائرين تأليف هنرى مونييه مصر عام ١٩٣٤

(2) Societé Sultanieh de Géographie et son Programme de travail; P. 1; 1919,

(3) Idid; P. 3.

القاهرة[1] . ولها أيضاً مكتبة غنية بما فيها من كتب ومراجع تاريخية وجغرافية عامة

ولو حاولنا أن نحصي نتائج البحوث العلمية التي قامت بها الجمعية منذ نشأتها إلى اليوم لظهر لنا أن قيمة هذه النتائج محدودة، وخصوصاً إذا قيست هذه النتائج بما استنفد فيها من مجهودات في مدة خمس وسبعين سنة تقريباً . إذ أننا لم نر لها بحثاً علمياً كاملاً في أية ناحية من نواحي الحياة المصرية، أو بما له اتصال مباشر بحوض النيل . هذا إذا استثنينا بعض المقالات والفصول التي تظهر بين وقت وآخر في مطبوعاتها ؛ فهي أقرب إلى أن تكون إعلانات عن موضوعات يتناولها فيما بعد علماء مختصون يعنون بدراستها دراسة علمية منظمة . ولا تزال تجهل كثيراً من الظواهر الاجتماعية والدينية واللغوية بحوض النيل . ولا تزال تجهل أيضاً كيفية تحليل تلك الظواهر وتحديد أوضاعها

وأما قسم المحاضرات بالجمعية الجغرافية فإنه لم ينهض لتحقيق الغرض الذي أنشئ من أجله، إذ لم يعمل على تنظيم إلقاء المحاضرات العلمية التي تتناول في مجملها دراسة أحد الموضوعات والمشكلات التي هي وليدة البيئة المصرية وغيرها

ولعل سبب هذا الجمود الملحوظ من جانب الجمعية الجغرافية الملكية يرجع إلى أنها هيئة لم تشرف عليها الحكومة إشرافاً فعلياً لتخصص لها العلماء وتنفق عليها الأموال اللازمة لتحقيق غرضها العلمي كما جاء في برنامجها السالف الذكر . وما دام هذا هو شأن هذه الجمعية فلا يحق لنا أن نعول عليها كثيراً وأن نحملها ما لا طاقة لها به من العمل على درس وتحليل البيئات الجغرافية والاجتماعية المختلفة الموجودة بحوض النيل، مع بذل الجهود في جمع وترتيب ما اشتملت عليه العناصر المادية لتلك البيئات . فضلاً عما

(١) يلاحظ أن معظم الأشياء الموجودة بمتحف الجمعية جمع من القاهرة وحدها، ومن حيث أن هناك فرقاً كبيراً بين الصناعات والمعتقدات وغيرها من الظواهر الاجتماعية في مدينة القاهرة عنها في الريف المصري ، فلذلك لا يجب أن نعول كثيراً على تلك المجموعة

يطلب إليها من العمل على المساهمة في بناء علم الأنثولوجيا مع المؤسسات العلمية في البلاد الأجنبية

(ب) ثروة حوض النيل العلمية[1]

حين يتجول المرء بحوض النيل من منبعه إلى مصبه، ومن شرقه إلى غربه ، لا يكاد ينتقل من مكان إلى آخر دون أن يلحظ كثيراً من التشابه تارة، ومن التباين تارة أخرى، بين البيئات الجغرافية والاجتماعية المختلفة . فمن منطقة جبال وغابات وبحيرات في الجنوب، إلى منطقة تلال وصحار في الشمال . وكذلك نشاهد على ضفاف النيل وعلى روافده كثيراً من القبائل الزنجية عراة الأجسام مثل الأشولي والمادي والبارى والشلوك والدنكا وغيرهم ؛ وفي مناطق أخرى نجد قبائل أفرادها نصف عراة مثل الانجستا والبرتا والتمايشة وما إليهم ؛ وفي شمال السودان ومصر نجد العرب والفلاحين وهم خليط من الدم السامي والزنجي وقليل من الدم الآري . ونلاحظ أن كل تلك الجماعات البشرية تختلف كثيراً فيما بينها من حيث التكوين الاجتماعي وعناصر التفكير والشعور واللغة وطرق الحياة ؛ وأن من تلك الظواهر ما هو بسيط في تكوينه، ومنها ما هو كثير التعقد والتنوع ؛ ولكل من هذه الأمم تاريخ قد يكون حديثاً فيرجع إلى مائة عام[2] أو أقل ، وقد يكون قديماً فيرجع إلى آلاف السنين

هذه هي حال الأمم والقبائل التي تسكن الآن حوض النيل . أما رجل ما قبل التاريخ والجماعات التي كونها والآثار التي خلفها فوق هذا الوادي فلا زلنا نجهل حقيقة أمرها . وإن بحوث

(١) مما ساعدني على فهم هذه الحقائق تجوالي في جهات متعددة بحوض النيل من منطقة البحيرات إلى البحر المتوسط في الفترة بين عام ١٩٣٨ وعام ١٩٤١

(٢) مثل الجماعات الموجودة بجنوب المديرية الاستوائية بالسودان (بجهة نيمول) ومقاطعة أوغندة (بجهة نوبر وموطير) وتطلق عليها الآن اسم (الملكية) نسبة إلى العساكر الرديف الذين تركوا هناك أثناء الفتح المصري لتلك الجهات

جاك دى مرجان Jacques de Morgan ، وهنرى دى مرجان Henri de Morgan ، وفلندرز بترى Flinders Petrie وغيرهم تدلنا على أن من الممكن عمل دراسة وافية مقارنة لآثار ما قبل التـاريخ بحوض النيل إذا تعددت البحوث وتوفرت الوثائق

من هنا يظهر جلياً ميزة الثروة العلمية الموجودة بحوض النيل ، وأنها تفوق بكثير ما عداها من ثروات أوربا وآسيا واستراليا . فنرى مثلاً فى أوربا نوعاً واحداً من المدنية هى المدنية الغربيـة الحالية ، وفى استراليا نوعاً واحداً من المدنية كذلك وهى «المدنية المحدودة » وهكذا ؛ ولـكننا نشاهد بحوض النيل « مدنيات محدودة » عند الأشولى والمـادى والأدك وغيرهم ، ومدنيات متوسطة مثل مدنية شمال السودان وريف مصر ، ومدنيات راقية مثل المدنية المصرية القديمة . ونشاهد أيضاً أن كثيراً من معالم تلك المدنيات[1] لم تزل باقية على حالتها الأولى برغم ما طرأ عليها من عناصر مدنيات أجنبية مختلفة

وإذا عنينا بدراسة تلك المدنيات وأسرعنا فى جمع معالمها وتحديد أوضاعها ومناطقها تهيأت فرصة طيبة لعلم الاجتماع وعلم تاريخ الأديان والجغرافيا البشرية واللغات وغيرها من العلوم الاجتماعية الأخرى للاستفادة والاستزادة من الأدلة والبراهين فى توضيح نظرياتها وتنميتها

تلك هى الفائدة العامة المرجوة من البحوث الأنتولوجية بحوض النيل ؛ أما فائدتها لمصر والسودان فإنه يكون من السهل استخلاص العناصر الرئيسية لمدنية كل منهما مع معرفة اتصال تلك المدنيات ببعضها وأثر المدنيات الأخرى فيها ، فضلاً عما يكون لتلك البحوث من أثر واضح فى توجيه المصلحين[1] الاجتماعيين والدينيين وغيرهم نحو الغاية المنشودة فى جهادهم ونضالهم لرفع مستوى الشعب المادى والأدبى . وإذا تعينت أوضاع كل مدنية وحدودها بحوض النيل سهل على أبناء هذا الوادى أن يؤمنوا بحقيقة قوميتهم

(البقية فى العدد القادم) **محمد مبروك عبد الحميد**

(١) إذا استثنينا البحوث التاريخية التى قام بها علماء الآثار وغيرهم وحاولنا أن نحصى البحوث الأنتولوجية بحوض النيل فاننا لا نظفر إلا بالقليل منها لعدم توفر اليد العاملة فى تلك الناحية ، فلم نر غير الأستاذين جورج سليجمان C. Seligman وإيفانز ريتشارد E. E. Evans Ritchard الذين قاما بعدة تجارب على قبائل الزاندة والنوير والشلوك والدنكا وغيرها ، ولم يعن بدراسة القبائل العربية الموجودة بشمال السودان غير مستر ماك ميكل Mac Machel ونفر قليل من كتاب العربية مثل نعيم بشقير . وأما قبائل النوبة بمديريتى دنقلة وأسوان وقبائل البجة على سـواحل البحر الأحمر ، وريف مصر ، فان دراسة كل تلك الجماعات لم تزل بكراً

(١) كما أن للعلوم الطبيعية مثل البيولوجيا والفزيولوجيا غاية عامة تسعى إليها وهى استخلاص القوانين الرئيسية التى يتعين بمقتضاها تركيب الخلية وشروط حياتها ونموها ، وعند المبدء فى القضاء على مرض معين أو الاكثار من جنس معين أيضاً من الحيوانات أو النباتات ، فعلى الأطباء وعلماء الحيوان والنبات أن يستشيروا البيولوجى والفزيولوجى فى هذا الصدد ؛ كذلك يتعين على المصلحين الاجتماعيين والدينيين وغيرهم أن يستشيروا بآراء علماء الاجتماع والأنتولوجيا فيما يبنون بناءه من مثل عليا للمجتمع لأنهم أقدر على تشخيص الداء ووصف الدواء

« ســـوء تفاهم »

كتاب الأدب الخالص

بقلم

بشر فارس

مجموعة أقاصيص تستهوى القارىء المستنير

بطرافة الموضوعات ولطافة المعالجة

طبع ونشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

ثمن النسخة ٨ قروش صاغ خلاف أجرة البريد.